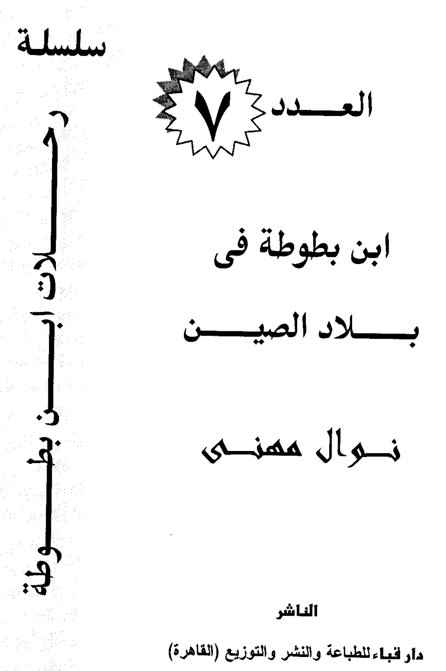


ابن بطوطة فى بلاد الصين

نوال مهنى

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة
المـــولـــف : أ. نوال مهنى
تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون
الدور الأول – شقة ٦
ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيســى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقــم الإيـــداع : ٩٩/٢٣٧٨
الترقيــم الدولــى : ISBN
977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجى الشهير بابن بطوطة القيام برحلة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكن معه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان ينزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبون

به. وفى عصر ابن بطوطة لـــم يكـــن النـــاس يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجــارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمراً شـــائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى الســـفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العـــالم القديـــم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائـــف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالـــها عـــدة لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنـــه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابـــن بطوطـــة

رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بيـــن بلد وآخر ولم يشغل نفسه بـــالعمل أو التجـــارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلتـــه دينية اجتماعية ولم تكن مـــن أجـــل كشـــوف جغرافية أو بحوث علمية. وكـــان عمـــر ابـــن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشـــرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البـــلاد فأكرمـــه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحيـــن انتهى من كتابتها أسماها (تحفـــة النظـــار فـــى غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبـــد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلـــة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعـــل. وكـــان زمـــن

الرحلة القرن الرابع عشر الميــلادى، ويعتــبر ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصـو الوسيط ولا زالـــت أخبــار رحلتــه العجيبــة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطـوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفـــة

نوال مهنى

ابن بطوطة فى بلاد الصين

دخل صديقنا ابن بطوطة بـــلاد الصيـــن الواسعة وهى آخر ما وصل اليه فـــى أقصـــى الشرق فى رحلته الطويلة وبلاد الصين تســتمد هذا الاسم من أسرة حاكمة حكمت هذه البـــلاد قبل الميلاد وتسمى أسرة تشين ثم أطلق الاســم على البلد بعد ذلك أمـــا لفــظ الصيــن فــهو التحريف العربى لكلمة.

وحين دخل ابن بطوطـــة الصيـــن كـــانت خاضعة لحكم التتار من أحفاد جنكيزخان الــذى غزا هذه البلاد وقضى على أسرة تشين.

وأهل الصين وثنيون ولهم معـــابد كبـــيرة ويحرقون الموتى مثل الهنود.

وسار ابن بطوطة فى الشوارع يتفرج على أهل البلاد فرأى أنهم قصار القامـــة وعيونـــهم ضيقة ومنتفخة ولكنهم يمتازون بالشعر الأســود الناعم.

ولفت نظر ابن بطوطة حينما ذهـــب إلـــى سوق الدجاج أن أحجام الدجاج والديـــوك فـــى الصين كبيرة جدا وقد اشـــترى دجاجـــة هـــو وأصحابه واراد طبخها فى حلـــة كبـــيرة فلـــم تسعها فطبخوها فى حلتين.



ورأى ابن بطوطة فى أسواق الصين العملة الورقية لأول مرة وهى عبارة عن أوراق فى حجم الكف مدموغة بخاتم السلطان وحين تتمزق يحملها صاحبها إلى دار خاصة تابعة للسلطان فسيتبد لها بأوراق جديدة، واعتقد ابن بطوطة أن التعامل بهذه العملة الورقية دليل على قلة الذهب والفضة. حيث كان الناس يتعاملون بالدنانير والدراهم المصنوعة من الذهب والفضة. أو ربما يدخرون الذهب والفضة لاستغلالهما فى صناعة أشياء أخرى فمثلا من عادة الأثرياء هنا تقديم الطعام فى أوان من الذهب والفضة وخاصة فى المناسبات

أو عند حضور ضيوف غرباء إلـــى بيوتـــهم وسمع ابن بطوطة عن فخار الصين وهو مـــن أجود وأبدع أنواع الفخار ويصدرونه إلى سائر البلاد ويحضر التجار خصيصا لشـــراء هــذا الفخار أو الخزف الذى يسمى صينى نسبة إلــى بلاد الصين، حيث كان الصناع يتفننـــون فـــى نقشه وزخرفتـــه ويصنعــون منـــه الأطبـــاق والسلاطين والصوانى والفنـــاجين. وأبـــاريق الزينـــــة التـــــى توضـــــع الأزهار بها.

ومن الفاكهة التى أعجبت ابن بطوطة تفـاح الصين أو النارنج وهو البرتقال المعـروف لأن

موطنه الأصلى بلاد الصين، وقد نقله التجـــار والرحالة المسلمون إلى بلاد العرب ثم انتقـــل إلى أوروبا عن طريق اسبانيا، ولا زال أهـــل المغرب العربى يطلقون على البرتقـــال اســم لتشين.

وعرف عن أهل الصين براعتهم فى الرسم والتصوير فكان صاحبنا ابـــن بطوطـــة يـــرى المصورين والرسامين جالسين ومعهم أدواتـــهم وكلما دخل سوقا أو مكانا وخرج منــــه يـــرى صورته مرسومة على الحوائط والجـــدران أو اللوحات التى أعدت للرسم.

وأراد ابن بطوطة معرفة أحوال المسلمين فى هذه البلاد فعرف أنهم يقيمون فى أماكن خاصة بهم وهم أصحاب السيادة فيها. ومعظم هذه الأماكن والأحياء على درجة من الفخامة وعلو الشأن ومضى يبحث عن هذه الأماكن حتى وصل إلى مدينة زيتون وهى ميناء عظيم ويعتبر مرساها فى نظر ابن بطوطة أعظم مرسى فى العالم كله. وقد رأى فى هذا الميناء أنواع السفن والمراكب العظيمة وهى ثلاثة اصناف- أولها الجنك وهو أكبر الاحجام والزو وهو الحجم الأوسط والككم وهو المركب الصغير ويعتبر الجنك سفينة عظيمة لها اثنا

عشر قلعا ويخدم فيها أكثر من ألف رجل ولـــها مجاديف كبيرة ويحرك كل مجـــداف عشـــرة رجال على الأقل وهى مكونة من أربعة طوابق وكل طابق به غرف منفصلة ذوات حمامـــات وتسمى المصريات وكل مصرية لـــها مفتـــاح يقفلها صاحبها عليه وعلـــى جوانـــب الســـفينة تزرع الزهور فى أحواض من الخشب. وربان السفينة أو الجنك يعامل كأنه أمير كبير.

ويعتبر الجنك فندقا عائما بلغـــة عصرنـــا الحالى كما تعتبر المصرية جناحا مستقلا.

وحينما وصل ابن بطوطة إلى أحد أحيـــاء المسلمين عرفه تجار المسلمين من هيئته وقالوا



له أنت عربى مسلم فرحبوا به وعرفوه على القاضى وكان اسمه تاج الدين وعلى شيخ الإسلام عندهم واسمه كمال الدين فأكرمه وأمر التجار بجمع زكاة المال وإعطاءها له فصار كأنه واحد منهم. وكانت هذه عادتهم مع كل غريب يفد اليهم، ثم كتبوا إلى الخان الكبير ملك التتار فأمرهم أن يرسلوه اليه فى مدينة خان بالق فى شمال الصين.

وعرف من أهل البلد أن سد يأجوج ومأجوج على بعد مسيرة ستين يوما من كانتون والمسافة بينهما تسكنها قبائل رحالة من اكلة لحوم البشر ولهذا لا يفكر أحد فى زيارة هذا

السد خوفا من أكلة لحوم البشر المتوحشين الذين يقطعون الطريق على كل مسافر فيه.

وركب ابن بطوطة مركبا فى النهر واتجه إلى خان بالق ومعناها بلد الخان وهى مدينة بكين الحالية. وفى الطريق وقف ليستريح على ساحل إحدى المدن ووجد بها جالية إسلامية فخرج أفراد الجالية بالطبول والأعلام والمنشدين ومعهم التجار والأعيان والشيوخ. وتصادف أن رأى مواطنا من المغاربة فتعرف عليه من ملبسه ولهجته ففرح كل منهما بلقاء أخيه حتى بكى.

وبعد ذلك تابع سيره بالمركب وفى الطريق توقف عند مدينة الخنسا وهى مدينة كنساى الحالية وكانت فى ذلك الوقت من أكبر مدن الدنيا وتتكون من ست مدن مترابطة والمدينة الثالثة كانت إسلامية وحين نزل ابن بطوطة سمع صوت المؤذن فتوجه للصلاة فى المسجد فقابل أولاد عثمان بن عفان المصرى وهو مصرى حضر للتجارة فأعجبته المدينة فاستقر بها وترك لأولاده وأحفاده تجارة وثروة كبيرة وأوصاهم بالعطف على الفقراء وإعانة المحتاجين وإكرام الضيوف..

فلما تعرفوا على ابن بطوطة أخذوه إلـــــى زاويتهم المعروفة واسمها العثمانية وظل ضيفـا عليهم لمدة خمسة عشرة يوما ثم استأذنهم فـــى السفر إلى الخان، وقبل أن يخرج من المدينـــة زار أميرها الذى أكرمه وأعد له هدية تشـــمل كل ما يحتاجه المسافر.

وهكذا كان ابن بطوطة طـــوال الطريـــق حريصا على لقاء الناس ورؤية كل ما يمر بـــه من بلاد وعباد واستمر فى السير بحرا وبـــرا حتى وصل إلى مدينة خان بالق بعـــد أربعـــة وستين يوما من السفر، ومدينة خان بالق فـــى زمن ابن بطوطة كانت مدينة كبـــيرة عـــامرة

وتحفها البساتين أى أن البساتين والحدائق مـــن خارجها وهذا خلاف مدن الصين الأخرى التــى كانت مصممة بحيث تكون الحدائـــق داخلـــها وتبدو الشوارع وكأنها بساتين وزروع.

ولما وصل ابن بطوطة مدينة خـــان بـــالق قابل الشيخ برهان الدين ومكث عنده فترة حتــى استراح من السفر واستعد لمقابلة السلطان.

وفجأة حدث حادث مؤسف لم يكـــن فـــى الحسبان، ولكن نذير سوء طالع ابن بطوطة فى هذا البلد، فقد قامت الحرب بين السلطان وابـــن عمه الذى خرج عليـــه وقـــامت فتنـــة كبـــيرة ودسائس خطيرة قتل علـــى أثرهـــا الســـلطان

واستولى ابن عمه على الحكم وكان اسمه فيروز. ولما انتشر الخبر نصح الشيخ برهان الدين صديقه ابن بطوطة بالعودة إلى مدينة زيتون خوفا من بطش فيروز السلطان الجديد إذا ما عرف ان ابن بطوطة جاء لمقابلة السلطان السابق.

وفعلا تشائم ابن بطوطة وقرر العودة من حيث جاء دون ان يقابل القان أو الخان بعد أن قطع شهورا طويلة فى السفر اليه.

وسلك ابن بطوطة فى العودة نفس الطريق الذى جاء منه وركب جنكا (سفينة) كبيرا سار فى البحر وكانت الريح طيبة والصحبة لطيفة،

وفجأة تغير الجو وأظلمــت الســماء ومضــت عشرة أيام كاملة على هذه الحال ودخل الجنــك بحرا غريبا وخاف الملاحون أن يتوه الجنك أو يغرق بهم وأرادوا العودة إلى خان بـــالق دون جدوى.

واستمر الحال هكذا لمدة اثنيـــن وأربعيـــن يوما كاملة وبعد ذلك رأوا جبلا ضخمـــا فـــى السماء يغطى الأفق ويحجب الرؤية تماما.

وبدأ الجبل يتحرك ويرفرف ويعلـــو فـــى الجو وعرف ركاب السفينة أنه طائر الرخ ولـم يكن ابن بطوطة قد سمع عنه من قبل.

وكان الاعتقاد السائد أن طائر الرخ طـــائر خرافى جاء ذكره فى الاساطير وفى حكايـــات ألف ليلة وليلة، ولكن ها هـــو الرحالـــة ابـــن بطوطة يؤكد أن هناك فى هذه البـــلاد البعيـــدة طائرا ضخما سد الأفق اسمه الـــرخ ويعرفـــه البحارة من أهل البلاد ولعلـــه انقـــرض فـــى عصرنا الحالى ولـــم يعـــد لـــه وجـــود مثـــل الديناصور، وجميع الحيوانات والطيور البالغـــة الضخامة التى سمعنا عنها ولم نرها.

وكانت حكومة الصين تفرض رقابة شديدة على الصينييـــن المســـافرين خـــارج البـــلاد والمسئولون يقيدون أسماءهم عندهـــم وتلـــزم

الحكومة صاحب الجنك بعودتهم إلـــى بلادهـــم ثانية، وكذلك تحرص الحكومة علـــــى تـــأمين التجار والغرباء وتحافظ على أموالهم.

ولذلك كان الضيوف والغربـــاء يســـيرون بأمتعتهم أو يتركونها عند أصدقائهم دون خوف عليها لأن البلاد آمنة.

وأهل الصين طيبون مســـالمون يتحدثـــون بصوت منخفض وبدون انفعال لأنهم يمتـــازون بالهدوء والأدب، وتقل فـــى بلادهـــم الجرائـــم والمشاكل وهم يحبون النشاط ويقدسون العمـــل ويكرهون الكسل وأشهر أكلاتهم من الأرز فـــهم يصنعون منه اصنافا كثيرة حتى الخبز.

ورأى صديقنا ابن بطوطة نهرا كبيرا ببلاد الصين يمر بوسط البلاد وعلى شاطئيه الزروع والبساتين والقرى والأسواق وهذا النهر اسمه ماء الحياة وينبع من جبل قرب مدينة خان بالق اسمه جبل القرود، وابن بطوطة كعادته يترجم معانى الأسماء إلى العربية، ولذلك فهو يخبرنا بالأسماء العربية وربما سمع ذلك من التجار العرب المقيمين بالصين، واستغرقت رحلة العودة من خان بالق حوالى شهرين قضاها ابن بطوطة فى الجنك. عرف خلالها من أحاديث البحارة والتجار الذين قابلهم وركبوا معه أن قوبلاى خان حفيد جنكيز خان ملك التتار الذى

غزا بلاد الصين وضمها إلـــى أمبراطوريتـــه الواسعة. هو الذى أنشأ أســـرة يــوان وظــل يحارب حتى وحد الصين كلها وجعل خان بالق (بكين) عاصمة لحكمه وشق الطـــرق ونظــم البريد، ولذلك نشطت فى عهده التجارة وفـــى أيامه عظم شأن الإسلام وقامت مملكة إســلامية فى شمال فيتنام وانتشر المسلمون من عـــرب وفرس وترك وأقاموا ببلاد الصين.

وحين اعتنق السلطان قازان الإسلام فتـــح أبواب مملكة إيوان أو الأسرة الحاكمة للمسلمين ودخل عدد كبير من الصينيـــن فـــى الإســـلام

وانتشرت الجاليات الإسلامية جنـــوب وشـــرق بلاد الصين.

وعرف ابن بطوطة أن حضارة الصين فى هذه الفترة قامت على أكتاف علماء المســـلمين وظل المسلمون منتشرين ولهم جاليات كبـــيرة ومدن عامرة وأسواق عظيمة وقصور فخمـــة. إلى أن ضعفت دولة المغول المسلمين وقـــامت الحروب بينها وبيـــن أســـرة بينـــج الصينيـــة وانتصرت أسرة بينج وانتهى حكم ملوك التتار، ولكن للأسف ضعف شأن المسلمين بعد ذلـــك فى الصين بسبب تعصب أسرة بينج الصينيـــة الوثنية التى كانت تكره الديانات السماوية علـــى

اختلافها فتعرض المسلمون للاضطهاد والظلم نتيجة لتعصب الحكام الجدد.

وحين عرف ابن بطوطة بتعصب البوذيين ضد الإسلام رفض زيارة المعابد البوذية لأنها معابد أوثان يعبدها الكفار ولا يعبدون الله الواحد، وقرر ابن بطوطة الخروج من بلاد الصين والرجوع إلى المشرق ولم يتمكن من زيارة سور الصين العظيم الذى كان من عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم. ورست المركب أو الجنك على ساحل جزيرة جاوه فنزل به ابن بطوطة. وبذلك يكون قد خرج من بلاد الصين القديمة.

وبلاد الصين الحالية متسعة المساحة ويصل عدد سكانها إلى ربع سكان العالم تقريبا وتعتبر من الدول الصناعية الكبرى لأن منتجاتها تغزو العالم. وأسعارها رخيصة نتيجة لتوفر المادة الخام فى أراضيها وكثرة الأيدى العاملة بسبب زيادة السكان. وهى عضو فى هيئة الأمم المتحدة لها حق الفيتو أو حق الاعتراض وهى دولة مسالمة ولها علاقات حسنة مع الدول العربية.

وحين زار ابن بطوطة الصين منذ أكثر من ستمائة عام وبالتحديد فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) كانت تعتبر

فى نظر العرب آخر بلاد الدنياجهـــة الشـــرق وكان الوصول اليها أصعب من الوصول إلــــى القمرفى القـــرن العشـــرين بســـبب صعوبـــة المواصلات وتخلفها ومخاطر الطريق.

ولكن ابن بطوطة الرحالة المغـــامر واجـــه الأخطار وتحدى الصعاب وقام برحلته الفريدة مـن جنوب الصين إلى شمالها وقدم لنا تقريرا تاريخيـــا عن أحوالها وأحوال المسلمين والعرب بها، وبعـــد أن تم له ما أراد قرر العودة مـــن أقصــى بـــلاد الشرق كى يتابع رحلته إلى مكان آخر.

☆ ☆ ☆